

الحماريات بين التصريح بالفكاهة والتلميح بالفكرة (حفر في أعماق الفكر الإنساني وطروحاته)

Donkeys between Declaring Humor and Hinting at the Idea (Digging into the Depths of Human Thought and Ideas)

د. نسيمة زمالي: أستاذ التعليم العالي، جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي، تبسة، الجزائر.

Dr. Nasima Zmali: Professor of Higher Education, University of Martyr Sheikh Larbi Tebessi, Tebessa, Algeria.

Email: nassima.zemali@univ−tebessa.dz

DOI :https://doi.org/10.56989/benkj.v4i7.1043

الملخص:

كان الحمار ولا يزال من الحيوانات الأليفة التي تعيش مع الإنسان، يعد من أكثر الحيوانات صبرا وتحملا، ولطالما كان له عونا وسندا في التنقل وحمل الأثقال، ولتلك العلاقة الوطيدة به، اشتهر وذاع صيته، وحظي بشعبية لم ينلها سواه من الحيوانات، رغم نعته بالغباء لتلك الصفات، جعله الفلاسفة والعلماء بطلا لأعمالهم، على غرار الأدباء الذين اتخذوه تيمة لإبداعاتهم، يبثون من خلال غبائه حِكَمَهُم، ويعبرون من خلف آذانه الطويلة عن شواغلهم ونشر أفكارهم؛ جاعلين منه موضوعا للفكاهة والضحك ظاهريا، وممررين من خلاله رسالتهم المشفرة إلى القراء، كما كان الأمر مع ابن المقفع في (كليلة ودمنة)... وتنوع ذكر الحمار، من مجرد استحضار عابر، إلى قصة قصيرة، فمسرحية أو رواية؛ فمن حمار تولستوي، إلى حمار جان بوريدان، إلى فكتور هيجو، ويحي حقي ورضا حوحو وتوفيق الحكيم. ويهدف هذا البحث لتوضيح دور الحمار في التعبير عن الأفكار الجادة والعميقة، لمختلف العلماء والأدباء والفلاسفة، والمغلفة بغلالة رقيقة من الفكاهة والضحك في الظاهر، متبعين في ذلك المنهج الوصفي، مدعوما بآليات الشرح والتحليل والتفسير.

الكلمات المفتاحية: الحمار، الأدب، الفكاهة، الفلاسفة، العلماء، التصريح، التلميح.

Abstract:

The donkey was and still is one of the pets that live with humans, it is considered one of the most patient and endurable animals, and man has always had help and support in moving and carrying weights, and for this close relationship with man, he became famous and he enjoyed a popularity that no one else had, despite being called stupid for these qualities. Philosophers and scientists made him a hero for their works, as did the writers who took him as a theme for their creations. Through his stupidity, they broadcast their wisdom, expressing their concerns and spreading their ideas behind his long ears. They make it seem like a subject of humor and laughter, and then pass through it their encrypted message to the readers, as was the case with Ibn al-Muqaffa in (Kalila and Dimna). And the variety of male donkeys, from mere invocation of him, to a short story, a play or a novel; From Tolstoy's donkey, to Jean Buridan's donkey, to Victor Hugo, Yahya Haqqi, Rida Houhou and Tawfiq al-Hakim. This research comes to clarify the role of the donkey in expressing serious and deep ideas, of various scholars, writers and philosophers, and placed in the form of humor and laughter in appearance.

Keywords: Donkey, literature, humor, philosopher’s scientists, statement, hint.

المقدمة:

احتلت الفكاهة مكانا هاما في تاريخ الثقافة الإنسانية، حتى أولاها الكثير من الفلاسفة والأدباء والحكماء أهمية بالغة في علاج وتقويم السلوك الإنساني؛ كأفلاطون، أرسطو، كانط Emmanuel Kant، شوبنهور Arthur Schopenhauer ، هوبز Thomas Hobbes وبرجسون Henri Bergson، الجاحظ، بودلير Charles Baudelaire، جورج إليوت George Eliot وإمبرتو إيكو Umberto Eco، وكانت ولازالت من أساليب النقد التي حفل بها الأدب في العصر الحديث، لأنها خصيصة مميزة للسلوك الإنساني، على غرار الضحك الذي هو التعبير الجسمي أو الفيزيولوجي عن هذا الجانب، عبر الكاتب الفرنسي رابليه François Rabelais عن الفرق بين الفكاهة والضحك قائلا: "إن الضحك هو الخاصية المميزة للإنسان، والفكاهة رسالة اجتماعية مقصود منها إنتاج الضحك أو الابتسام" (الحميد، 2003م، ص07)؛ لذلك اهتم علماء النفس بالأبعاد السيكولوجية للفكاهة والضحك، مثلما أقر النقاد دورهما الحساس في بناء السلوك وتوجيهه، ومن بينهم ميخائيل باختين (الحميد، ص08).

وهي رسالة ذات بنية خاصة، ومحتوى مميز، وطوابع مختلفة؛ وعلى رأس طوابع الفكاهة توظيف الحمار، فقد استخدمت آداب شعوب العالم الحمار كمادة لتمرير المواعظ الأخلاقية والأفكار الفلسفية، وإقرار الحِكَمِ كدستور في الحياة منذ ما ينيف عن العشرين قرنا، و"تعددت أشكال ظهور الحمار في الأدب؛ فحضر في عشرات الأعمال التي خرجت من بيئتها المحلية إلى العالمية لتصبح جزءا مهما من التراث الثقافي للإنسانية.

وقد اختلف توظيف الحمار من مبدع لآخر تبعا لرؤية كل واحد للعالم والحياة، ووفق فكر المبدع وزمانه ومكانه وثقافته، فحظي الحمار بلفتة كبيرة من قبل المبدعين: قصة، شعرا، رواية، ومسرحا، كما اختلف في طريقة حضوره في تلك الإبداعات؛ بين متحول عن إنسان، أو مؤنسن يتكلم ويحاور الإنسان، ويظهر آراءه في مختلف القضايا المصيرية، وأخير واقعي يحادثه الإنسان ويصفه ويبث من خلاله آراءه وانتقاداته.

أولا: الحمار في الآداب العالمية:

1) الحمار/الإنسان: (حمار لوكيوس أبوليوس) (Lucius Apuleius):

بدأت بوادر الحميريات في الأدب عند الكاتب الأمازيغي لوكيوس أبوليوس، في أثره: الحمار الذهبي (أبوليوس، الحمار الذهبي، ترجمة أبو العيد دودو، (د.ت))، الذي يعد أقدم رواية في تاريخ الإنسانية، صاغها المؤلف المتحدث في شكل مذكرات (يوسف، 2015)، فجاء تعبيرا عن الظلم والقسوة البشرية، بعد ما ذاقه الحمار المتحول المسحور من قسوة وعذاب وإهانة من قبل البشر،

ورغم ظاهرها الفكاهي إلا أن لها قيمة كبيرة تاريخيا وفلسفيا، حيث تنتقد انحطاط البشر وتجبرهم وغرورهم وسفالتهم وحمقهم وأذيتهم لغيرهم؛ إذ "لم ينقذ الحمار مما هو فيه إلا الربة إيزيس، التي أشفقت عليه وعرفت أن روحه الطاهرة قد ضلت سبيلها فوقعت في جسد البهائم بين قساة القلوب ونفوس الأباليس، وقد أراد المؤلف من هذه الرواية، "التهكم على أخلاقيات المجتمع الروماني وعوائده التي سوف تقوده إلى أسوأ نهاية." (نصار, 2012)

غير بعيد عن رواية "لوكيوس أبوليوس" تصادفنا رواية أخرى كتبها لوقيانوسالسميساطي (القرن الثاني بعد الميلاد) وعنوانها (لوكيوس والحمار)، ومن المرجح أن هاتين الروايتين تستوحيان قصة ظهرت قبل عصرهما، ومؤلفها لوكيوس البتري، (من البتراء) حسب ما يقوله أحد علماء القرن التاسع الميلادي ويدعى فوتيوس، بعدما اطلع على هذا الأصل الذي لم يصل إلينا"، (حمار ود الطاهر، 2018)، (الحمار الذهبي، ترجمة أبو العيد دودو،)ورغم إغراق هذه الرواية في الجانب الخيالي كعالم الآلهة وأنصافها، والسحر، والخوارق إلا أن المعنى المرجو منها، نقد سلوكيات القسوة والرذيلة، والتسلط على الضعفاء، والتنبيه إلى عدم الاستهزاء من الآخرين، وطريقة تحول الإنسان من الطبيعة البريئة الطيبة إلى الشر والمكر والخبث.

2) الحمار الإنسان يعود من جديد (حمار ماكيافيلي: نيكولو دي برناردو دي ماكيافيليى) (Niccolò di Bernardo dei Machiavelli):

في العصر الحديث أعاد الفيلسوف ماكيافيليكتابة رواية (الحمار الذهبي) ذاتها، سنة 1475م، إلا أنها لم تكتمل لوفاته، لكنميكافيلي "يجعل الحمار المتحول (بطل الرواية) يصادف صديقا قد تحول بدوره إلى خنزير، لكنه يرفض الإنابة إلى هيئته الآدمية؛ والعودة إلى العالم الإنساني القاسي؛ حي المعاناة و الظلم و العنف، فيقول: "إن الخنزير لا يعذِّب خنزيراً، وحده الإنسان يقتل إنساناً آخر، ويعذبه وينهب خيراته"، (العياشي, 2019)وفي ذلك سخرية مريرة تهدف إلى مهاجمة الوضع الراهن في الأخلاق، السياسة، السلوك والتفكير، ذلك الوضع الناتج عن ممارسات سابقة، فكان هذا النوع من الأدب الساخر أو الفن الساخر وسيلته في التحذير ومن ثم النقد، وتكمن المفارقة في هذه الرواية في تفضيل الإنسان الطبيعة الحيوانية على البشرية، رغم أن وجود المتنافرات والمتناقضات معا جزء من بنية الوجود". (فنسنت، 1987) لكن المتناقضات هنا تقفمقابل كل شرور الإنسان.

الأثر الفكاهة والسخرية التي تنطوي في الحقيقة على أفكار جادة ونقد لاذع للطبيعة البشرية المنصاعة للأهواء، بعد أن اخترعالروائي شخصية ذات مرجعية في الوجود، بالنظر إلى أسبقية التأليف فيها عند لوكيوس، وبدورها صنعت المفارقة، التي هي أقرب إلى الواقع، وترتبط بالسخرية والضحك، بالكوميديا والتراجيديا معا، (Frye, 1985،)؛ فصاغها شخصية روائية متخيلة سقط

عنها قناعها الحيواني القديم وألبسها ثوبا بشريا جديدا، لتصبح الشخصية الحمارية شخصية ثانوية ذات أثر مرجعي، فتصوغ أحداثا مغايرة للشخصية الحقيقية (الآدمية) أو المرجعية (حمار لوكيوس الأمازيغي) قادرة على أن تعيش حياة الكائن الإنساني، ويعيش الإنسان في جلد حمار، ويتمتع كل واحد من هاتين الشخصيتين بصفات الآخر، وينجز عملا معبرا عن شخصه متعدد الجوانب وكاملا؛ فتطرح بذلك نقدا لوضع غير مقبول ولا مستساغ، وتعمل على تقويضه، ومن ثمة تغييره.

3) الحمار المتأنسن (حمار وليم شكسبير) (William Shakespeare):

يستدعي شكسبير الحمار في أثره المشهور (حلم ليلة في منتصف الصيف) (شكسبير)؛ وتحكي قصة (بوتوم المزارع) الذي تحول رأسه إلى رأس حمار، وكان من المفروض أن تهيم به الملكة (تانيا) حبا، لولا تدخل الملك (أوبيرون) وإصلاح الأمر، وكان هذا الحمار مثار النفور والقبح، لعدم تقبل الناس إنسانا برأس حمار، بينما يراها الكاتب نوعا من الفكاهة والسخرية البناءة، إذ تعد نوعا من التأليف الأدبي أو الخطاب الثقافي الذي يقوم على أساس انتقاد الرذائل والحماقات والنقائص الإنسانية، الفردية منها والجمعية، كما لو كانت عملية الرصد أو المراقبة لها تجري هنا من خلال وسائل وأساليب خاصة في التهكم عليها أو التقليل من قدرها، أو جعلها مثيرة للضحك أو غير ذلك من الأساليب التي يكون الهدف من ورائها محاولة التخلص من بعض الخصال والخصائص السلبية... مثلما يكون الاعتزال أحيانا التزاما صارما بقضية هذا المجتمع، ومن ثم لا تكون عزلة الأديب مظهرا لسلبيته بقدر ما هي تعبير صريح عن موقفه، ورفض جهير معلن لأوضاع لا يرضى عنها، أو يستطيع أن يسايرها؛ لجأ فيها كاتبها إلى الرمز؛ فالليل الذي هو زمان القصة رمز الفساد والسواد في حياة المجتمع، " فمنذ وجد الإنسان على الأرض كان الليل بالنسبة له سرادق تجميع أفكاره، ومهبط أحلامه الصامتة، فلطالما كان وحي الشعراء والفلاسفة وميدان خلواتهم، ففيه تتجلى الحكمة والوقار، ويفتح عالم الرؤى أبوابه، ولطالما كان مهبط الهدوء وتداعي الأفكار.

تم سرد القصة في شكل حلم مما شابه فن المنامات في الأدب العربي، وفي المنام والليل إشارة إلى عزلة الكاتب في مجتمع مضطهد، لا يجد فيه سندا ومجالا للبوح بأفكاره إلا من خلال الأحلام، فالحلم هو المكان الوحيد الذي يجد فيه مساحة من الحرية ليفعل ما يشاء، وإن كان الحلم نوعا من العزلة، ولطالما عبر معتزلو الناس عن إحساسهم وضيقهم بوطأة الواقع الاستبدادي، "ذلك لأنهم قد وضعوا لأنفسهم معايير خلقية وروحية تعصم انطلاقهم وحريتهم مما يدنس الروح أو يطمس الوجدان، وهم يحسون بغربتهم ويرون أنهم مغبونون؛ للمكانة التي افتقدوها في واقعهم" (بوقرورة، 1962، صفحة 120)، فتمت شخصنة الحمار؛ ليفرغ الكاتب من خلاله ما بداخله من نقمة وثورة على الوضع الخاطئ في المجتمع، كما أن تباين العواطف من حب، كره، انتقام،

غضب، وغيرة...في عالم الآلهة وأشباهها في أثر شكسبير، إشارة إلى تواجدها في عالم البشر في مجتمع الكاتب، ورأس الحمار ما هو إلا تعبير عن الشماتة أو الازدراء لمن توجه إليهم، فكانت العبرة منها توضيح المشاعر التي تحكم المخلوقات حتى الجن كالحب والغيرة والكره.

4) الحمار المثير (حمار فريدريش دورينمات) (Friedrich Durrenmatt):

ظهر هذا الحمار في مسرحية (محاكمة حول ظل الحمار)،" (دورينمات، 2004)؛ التي اشتملت على الكثير من مشاهد الكوميديا الساخرة التي تهزأ من الإنسان الذي تشغله بعض الأمور الصغيرة، بينما يعدها بغبائه كبيرة؛ نظرا لإحساسه بالكبر والغرور؛ فيورط نفسه في مشاكل كبيرة، لذلك كان هذا الحمار "سخرية مريرة من المجتمع البشري، الذين يهتم ببعض الأمور الهامشية ويعرض عن الأمور الجوهرية، فأولى من رحلات غزو الفضاء التي تقوم بها الدول الكبرى، القيام بتوفير الطعام والأدوية للدول الفقيرة التي تعاني المجاعة، لاسيما في إفريقيا، ومثل هذا كثير... وقد أطل من خلال مسرحيته هذه ومجتمعها الإغريقي على عصرنا وانتقد ما يراه فيه من عبث يصنعه الإنسان، ثم يؤنب نفسه بعد ذلك على ما جنته يداه"، (خليفة، 2018)، وذلك دور الأديب والعالم على السواء منذ الأزل، فهم من يأخذون بيد الشعوب، وينشرون الفضيلة وحب الخير، ويتحملون أعباء بناء الأوطان وإرساء القواعد الخلقية لإرساء دعائم المجتمع، لعل الأدب أقدر الوسائل على حمل تلك الرسالة، ولطالما نادى فريدريش دورينمات "أن الكوميديا هي أنسب الأشكال في المسرح للتعبير عن مشاكل الإنسان في ذلك العصر، (خليفة، 2018)"، فقد أدرك دورينمات مدى أهمية الكوميديا في النقد البناء، الذي هو دعامة إصلاح لكل مظاهر الفساد والاحتيال، وهو يجنب الناس الوقوع في الأخطاء والعيوب والنقائص.

والمسرح الكوميدي هو نوع من أنواع السخرية التي تعتبر أسلوب تفكه يهاجم به الناس الأفراد والمؤسسات، وكل ما لا يرضونه، والسخرية في حد ذاتها "أحد الأساليب المهمة في الفكاهة"، (Berger ، 1993، ص49-50).

وتحمير الإنسان، أو أنسنة الحمار من أهم أساليب السخرية وبالتالي الفكاهة، وكلتا الشخصيتين تعتمدان آلية الهدم والبناء في الآن ذاته، "هدم الواقع السيئ الذي تشبعت به الذاكرة الإنسانية على صعيد الواقع التاريخي، وبناء واقع جديد مشيد روائيا على صعيد المناخ التخييلي"، (البياتي، 2012)، كما تعيشان دورهما بملابسات الماضي وتحولات الحاضر في إطار الترتيب السردي للزمن؛ مما يفضي إلى لحظة آنية، تجدد الحدث والشخصية في منظور سردي هو سرد الحماريات، والذي هو في الحقيقة موجه إلى العامة، وليس القلة المثقفة، حيث يستطيع الجميع الشعور بالانسجام فيه ومعه، وبالتالي يتحول الحمار إلى شخصية روائية فنية، تتقوقع داخل الذات

الإنسانية ويتقوقع الإنسان داخلها، فيخضع كل واحد لشروط الآخر ومتطلباته، فيجسده تجسيدا كاملا، وبالتالي تتحقق الفكاهة من جهة، ويتحقق النقد المضمر من جهة أخرى

5) الحمار السياسي (حمار جورج برنارد شو George Bernard Shaw):

ورد الحمار في أدب الكاتب الإيرلندي الساخر (برنارد شو)، " (يوسف، الحمار في الحياة والسياسة والأدب، 2018) في قصته الرامزة، إثر انفجار الوضع بين مصر وبريطانيا قبل إبرام معاهدة الجلاء مباشرة عام 1954، في كلمته التي تحدث فيها عن حكم الذئب، ومركوبه الحمار بعد فرار جميع حيوانات الغابة الحاكمة كالأسود والنمور. (الحديدي, 207) وهي قصة سياسية رمزية، رمز بها إلى فساد السياسة والسياسيين، كما ينتقد بها إيكال المهام إلى غير أهلها، ووضع الرجل غير المناسب في المكان غير المناسب، واعيا دوره كأديب، وبحجم المهمة الملقاة على عاتق المثقف، وهي مهمة قيمية؛ أي تنشر قيم الفن، الأخلاق، الحضارة، ثم تصوير الحياة الاجتماعية بتوجهاتها وأطيافها "على أساس الصدق في تصوير السمات الأساسية في المجتمع وتجاوز رداءة ووضاعة بؤس الحياة اليومية بتسليط الأضواء على المواقف التي تعبر عن التناقضات الفردية والاجتماعية"، (البياتي، 2012)، وتأتي الحيوانات كشخصيات خيالية وعلى رأسها الحمار لتكون وسيلة لإماطة اللثام عن التناقضات وعن الواقع السياسي والاجتماعي الذي يرزح تحت الظلم والاستبداد، حين يصبح الحاكم ذئبا يقتات على ضعاف النعاج، والشعب حمار مركوب مأمور، يفعل ما يطلب منه دون قيد أو شرط، ودونما حوار أو نقاش، وهذا حال العرب كما صوره برنارد شو.

عرف برنارد شو كيف ينقل الحمار (كشخصية) من سياق إلى سياق، من سياق الواقع الحيواني الأبله الغبي، إلى سياق السياسة التي لا يدخل بابها إلا الكيس الفطن، ليصبح –مع غيره من الحيوانات– شخصية متخيلة تستغني عن دورها التقليدي في واقع الحياة لتمثل دورا آخر أسند إليها إسنادا وأقحمت فيه إقحاما، لغرض نقدي، تربوي، وإصلاحي، رغم طابع التهكم الذي يسم النص، أما أحمرة برنارد شو الأخرى، فوردت في شكل حكم أطلقها في شتات إبداعاته؛ من مثل قوله: "السرج الذهبي لا يجعل من الحمار حصانا"، "المرآة لا يمكن أن تحول الحمار إلى ملاك"، "ليس هناك فرق كبير بين الحمير الناهقة والحمير الناطقة"، "في ديمقراطية الجهل الحمير هي من يحدد مصيرك"، (الحديدي، 207)؛ وهي لا شك سخرية مريرة، يلبس من خلالها الإنسان لبوس الحمير، فينتقد فيه قلة الأصل وذلة الطبع وفقدان القيمة، حتى لو غلفتها كثرة المال أو الجاه أو السلطان، أو المناصب السياسية العليا.

6) الحمار التمثال (حمار خوان رامون خمينثمانتيكون Juan Ramón Jiménez Mantecón:

تناول الكاتب الإسباني: خوان رامون خمينث بلغة شعرية في روايته (أنا وحماري)، (خمينث، 1916) رحلة الشاعر مع حماره الفضي المدعو (بلاتيرو)، تأمل من خلالها الحمار الطبيعة الخلابة في قرية صاحبه الشاعر ومرابع صباه، ضمنها أشعارا وأقوالا مأثورة أجراها على لسان هذا المخلوق، تحول بفضلها الحمار بلاتيرو إلى دمية مشهورة محببة للكبار والصغار في كل ربوع العالم؛ إذ صنعت له دمى جنيسة من مختلف المواد الأولية (الخشب، الرخام، القش، الورق، القماش...كما وضعت منه نسخة للعميان يتحسسونها على طريقة (لغة بريل للعميان)، بالإضافة إلى ترجمة الرواية إلى العديد من لغات العالم، ما أضفى عليه نزعة إنسانية وعالمية... أما الرسالة التي أراد الكاتب أن يمررها من خلال حماره، فهي تفضيله في الرفقة على الإنسان الحي، إذ هذا المخلوق الذي لا روح فيه هو رفيق رحلته، وسميع آهاته وتأوهاته وشكواه، مثلما طاف به القرى والأرياف وأراه بؤس البائسين وألم المتألمين ومعاناة المعانين، فأحسها واستشعرها، ولم يحسها الإنسان العاقل، الحي، المتحرك...

ولعل الكاتب في هذا الأمر نسج فكاهة خاصة للأطفال، حين جعل حماره في قالب لعبة، ولطالما كان "للفكاهة والضحك فوائدهما الكبيرة في تربية الأطفال وتعليمهم، ولهما دور مهم في البرامج الإعلامية الترفيهية أيضا، وكذلك لهما علاقة بالسلوك السياسي وبالإبداع والتذوق الفني"، (الحميد، 2003م، ص10) فرامون حين نسج هذه الشخصية الحميرية المحببة إلى النفوس، كان قد أفاد من مدونات السابقين في الموضوع، وأعاد تشكيل هذه الشخصية وبلورة فكرة الإنسان/ الحمار، عن طريق إعادة تشكيلها عن طريق الخيال الذي عمل بعد ذلك على ابتكار شخصيات مجانسة للرفيق الأمثل للإنسان في قالب حمار، ووسمه بسمات الوفاء ورهافة الحس، ورقة القلب، وعشق الطبيعة، عكس ما عرف به الحمار من بلادة وغباء.

حتى وإن وجدت هذه العناصر وجودا حقيقيا في الواقع، فإن الخيال حول "بقدرته الفائقة على التخصيب والتثمير والإغناء" (البياتي، 2012) الحمار الفضي كلعبة إلى واقع يحياه الفتى الرفيق عن طريق الإيهام بكون الأحداث والشخصيات حقيقية، تتكشف عن جدية في الطرح، وجرأة في اختيار الحيوان الرفيق، الذي يعد من أغبى الحيوانات رغم طرافته، وساءله مساءلة المقدس والحقيقي والماثل بمواصفات ثابتة في الذاكرة الجماعية انفتح معه المؤلف على فضاء حرية الخيال والكلام، فأفصح عن صدقه مع ذاته ومع مجتمعه، فانتقده انتقادا لاذعا، حين جعل رفقة حمار أولا وجماد ثانيا، أفضل من رفقة البشر.

7) الحمار الساذج (حمار جان دو لافونتين) (Jean De La Fontaine):

وردت قصة حمار الشاعر الفرنسي الشهير لافونتين ضمن كتابه الشهير (حكايات لافونتين)،(Fontaine، (S.D)، نقلا عن شاكر عبد الحميد: الفكاهة والضحك.) في حكاية (الحيوانات المصابة بالطاعون)، التي أرادت التضحية بقربان لرفع غضب الله ورفع الوباء معه، فكان الحمار قربانهم، بفعل حيلة احتالتها حيوانات الغابة عليه، وبالتالي يعود لافونتين بشخصية الحمار إلى البساطة والبلادة والغفلة والضعف وقلة الحيلة...والقصة رمزية كرمزية قصص كليلة ودمنة، رمى لافونتين من ورائها إلى إبراز تجاوزات خطيرة في المجتمع من مثل: حكم الغاب الذي تبرر فيه دائما جريمة القوي، بينما يحاسب الضعيف، مهما رُفعت فيه شعارات العدل والمساواة والإخاء، وحيث الحكم على الفرد يتوقف على قوته، وحيث يوجِدُون الأعذار للقوي دائما، ويبررون له أخطاءه ومخالفاته، في حين يحاسب الضعفاء بشدة وبلا هوادة، وحيث يتم إحصاء هفوات الضعفاء التي لا تقارن بأفظع جرائم الأقوياء.

لاشك أن في القصة "انتقاد لرجال الكنيسة الذين يظلون يتشدقون بحرمات الدين، ثم لا يجدون غضاضة من تبرير جرائم الحكام وظلمهم؛ حرصا على مصالحهم وعلى سلطتهم التي مُنِحُوها، كما تصور سذاجة الحمار آكل العشب المسكين عندما اعترف بذنبه أمام كبار المجرمين، وذلك لأن القانون لا يحمي (الإرهابيين) أكلة العشب" (والمجتمع، 2016)، ويعد لافونتين بأدبه ممن أسنوا الحمار لإلقاء المواعظ والحكم، في مجموعاته الشعرية الثلاث، التي سَخَّرَ فيها الحيوانات لتوجيه أقسى أنواع النقد لأحوال المجتمع الفرنسي وقيمه وعاداته آنذاك، ويظهر الحمار في أعمال (لافونتين) في أشكال عديدة؛ ضحية عاجزة مرة، وحكيما مرة أخرى، ومعتدا بنفسه، أو غبيا أو جبانا، أو أحمقا، أحايين ثالثة.

ويظهر التخييل جليا في هذه القصة، حيث اختزل لافونتين حياة البشر الأقوياء المحتالين على الضعفاء المتسلطين على رقابهم، في حياة حيوانات الغابة من أشرسها إلى أضعفها، ومن أكيسها إلى أغباها، ومن ضعيفها إلى أقواها، وجعلهم صورة للبشر، يصلح كل فرد في المجتمع أن يكون واحدا من هذه الحيوانات حسب شبهه ودوره في الحياة، وكان الحمار أبسطهم وأطيبهم وأودعهم، فجسد الإنسان الضعيف الذي لا حيلة له بين ذئاب البشر وفهودها وأسودها ونمورها...

8) الحمار الفيلسوف (حمار الكونتيسة دي سيغور (1799- 1874م)(Contaisse De Sigoire):

جاء حمار الكاتبة الفرنسية الكونتيسة دي سيغور بطلا لكتابها (خواطر حمار)، (سيجور، 1932)، وحمل اسم (كوديشون)، ألبسته حلة التواضع والطيبة، اللين والعقل الراجح، حتى جعلته

فيلسوفا، يرى أن "الغباء والذكاء في الحكم على العقول نسبيان، فالخبرات والمعارف بحار بلا شطآن، وأن التعصب لغير الحق اليقين، لا ينجم عنه سوى البور والعنف والتخلف والاستبداد المكين، يُحَجِّرُ العقل ويحرمه الموازنة والمفاضلة والاختيار والفصل بين الأمور،" (نصار، 2012)، كما جعلته مصلحا اجتماعيا، "خبر المجتمع الإنساني، فوضعه تحت عدسة النقد، ومن أهم آرائه وجوب التعامل باللين والإحسان في تربية الجحوش، التي ترمز كذلك إلى صغار البشر"، (نصار، 2012) فكانوا صورة الطفولة المظلومة في مجتمع البشر، بعد أن أصبحت تُضطهد وينكل بها، وترتكب في حقها أفظع الجرائم، بينما كان الحمار رمز اكتمال العقل البشري، الذي يتعجب من فكر الإنسان المشهور بالعقل، لكنه بدل أن يثور لأسباب هامة ومصيرية، تكون ثورته تافهة حين يثور على فصيلة الحمير؛ لذلك جاءت فلسفة الحمار في الكتاب ناقدة، وآراؤه ساخرة متمردة.

رغم طابع الكتاب الساخر والفكاهي، حين قدم مادته في شكل مذكرات فلسفية فكرية تروى على لسان حمار تائه يتنقل بين أزقة، شوارع وضواحي باريس، ويعكس الحياة كما يراها هو كحمار، ويعايشها كفيلسوف، إلا أن الجانب الجدي فيه يظهر بإبدائه آراء فعالة في النقد الاجتماعي وعلم النفس، والوقوف إزاء المتغيرات والسخرية من تصرفات الناس، وكان الحمار حسب الكاتبة هو أصدق من يعبر عما يحدث في المجتمع الفرنسي آنذاك، مشيرة من خلاله إلى "اللغط الحاصل ضد رجال الكنيسة والرجعيين الواقفين عقبة في طريق التطور والإبداع، كمبادئ الثورة والتحرر والفكر؛ فمن جهة كانت حركة التنوير قد أخذت جذورها تنحت حاضراً مشرقاً في نفوس شبان ثوريين تأثروا بمبادئ الكلاسيكية المعقدة وبتمرد من الرومانسية وبواقعية الحياة وبضرورة التغيير، ولم يهمل النهضويين من المفكرين الوطنيين الذين مارسوا الأدب والسياسة شيئا في تثبيت دعائم ثورة اجتماعية وثقافية، ولم تستطع قيادات البلاط الملكي من قمع هذه التظاهرات الفكرية لا بالسجون ولا بكبت الحريات... فظلت وتيرة الإبداع تتصاعد بتوجهات سياسية اجتماعية، يكون فيها المثقف والأديب اللاعب الأساسي في ملعب التغيير"، (القيسي، 2012) فكان بطلنا الحمار رمز التنافر والتجاذب الحاصل بين التيارات الفكرية والاجتماعية في المجتمع الفرنسي في فترة معينة بين تيارات التجديد والثورة الرجعية الكلاسيكية.

مثلما عبر من جهة أخرى عن أفكار شتى؛ جمعت بين الأسف والحسرة على وضاعة الإنسان وسفالته وتغاضيه عن الحق، الخير والجمال، وربطت الحمار بكل الصفات الإيجابية؛ كالذكاء، العلم، والتواضع والطيبة، كلها مواصفات وصف بها حمار الرواية، بدل صفاته المعروفة اللصيقة به كالبلادة، الجهل، العناد، الحمق وغير ذلك من الصفات المذمومة.

9) الحمار المثقف السلبي: (حمار جورج أورويل) George Orwell:

جاء حمار جورج أورويل ضمن كتابه (أورويل، 1945م)، وقد انتقد به الشيوعية، يظهر جانب السخرية في الكتاب بجعله يفكر طوال الوقت في سيادة الإنسان على جميع الكائنات، بينما يعد المخلوق الوحيد الذي يستهلك دون أن ينتج لا بيضا ولا حليبا، لا صوفا ولا لحما...ولم يجد جوابا لتساؤلاته...أطلق جورج أورويل على حماره اسم "بنيامين،" وهو أكبر الحيوانات سنا لكنه أكثرهم برودة وتهكما وضحكا، واستحضر كرمز للطبقة التهكمية السلبية اللامبالية في المجتمع، في حين كان صديقه المفضل (بوكسر الحصان) يرمز للطبقة العاملة الكادحة.

كان سكوت الحمار وصمته على فساد الخنازير رغم علمه بذلك إيحاءً إشاريا إلى المثقفين السلبيين الذي لا يأخذون قرارات صارمة في التغيير رغم علمهم بفساد الحكام والسياسيين، ولعل بنيامين هو أورويل ذاته، فبنيامين "يمكن رؤيته على أنه الشعوب التي عاشت أثناء طغيان قيصر، وكانوا شاهدين على عقم إمكانية تحقيق اليوتوبيا التي يبشر بها بعض الناس"، (يوسف، الحمار في الحياة والسياسة والأدب، 2015)، بالإضافة إلى رمزه إلى الثورات الشعبية بأسسها ومتطلباتها ومثبطاتها، كفساد القادة، جهل الرعية وسلبيتها، قِصَرُ النظر والطمع... وبالتالي فشل الثورة في الانتقال السلس إلى الديمقراطية وحكم الشعب.

رغم ما يسم حمار أورويل من سذاجة، إلا أن سذاجته كانت نابعة من صراحته الشديدة؛ حين أعطى لكل كلمة مدلولها الصحيح ببرودته واستهزائه ولامبالاته وضحكاته المستمرة، والإنسان بطبيعته يضج من كثرة الفساد وتفشيه، وحين لا يستطيع تغييره، يلجأ إلى سبل مواجهة أخرى كالاستهزاء، السخرية، الضحك، لكن الحمار بنيامين بفعل برودته ولامبالاته الضاحكة، جَرَّ المشاكل والانتقاد لنفسه وصاحبه، رغم أن أورويل رأى فيه مثلا أعلى لجميع المخلوقات تواضعا وطيبة وابتعادا عن الدهاء والمكر والخبث.

10) الحمار الفيلسوف: (حمار فكتور ماري هوجو)(Victor Marie Hugo):

استحضر الشاعر والروائي الفرنسي فكتور هوجو الحمار في قصيدته الطويلة (الحمار)، (Hugo)، 1927، ص 324-331)، فكان من أكثر المدافعين عن هذا الحيوان، حوَّله إلى حكيم وأجلسه إلى طاولة الفلاسفة، مواجها به إيمانويل كانط، وفارضا عليه آراءه وقناعاته، بل جعله أنبل من سقراط وأعظم من أفلاطون. (يوسف، 2015)، بل هو "أبرع من كانط نفسه" (نصار، 2012)، وقد كانت "مكانة كانط الفكرية في ذروتها آنذاك"، (العرفج، 2001)، اشتق له اسما من معاناته وصبره فسماه Patience (صبر)، وجعله أرقى أخلاقيا من الإنسان في قصيدة الضفدع.

جعل فكتور هوجو "صابر" (الحمار) فيلسوفا يجيد الحوار، وينطق بالحكمة، ورفعه فوق مستوى البشر، وأنطقه بالحكم فقال أن "الفضائل ليست حكما محفوظة كتبها أفلاطون عن أستاذه سقراط، بل هي فعل وسلوك يؤمن به الإنسان ويسير عليه من الميلاد إلى الممات،" (نصار، 2012)، ورغم كون الحمار مثال السخرية والضحك إلا أنه تصدى لرجال الدين وتعصبهم، وخداع التجار والساسة على السواء، ونشر من خلاله حكما مفادها أن نجاة البشر مرهونة بالفضائل والتطهر من الذنوب والأحقاد، والتصدي للشر والأشرار، كما يجب على الناس مساعدة الضعفاء، ومد يد العون والمساعدة لمن يحتاجها، وكان مضرب مثله في ذلك قصة باسيون مع الضفدع.

رسم من خلال فلسفة الحمار الانفعالية صورة الإنسان المتعلم، لكنه لا يترفع عن الخبث، ويتسم بالجبن أمام الكبار، وهو دون رحمة أمام المساكين"، (العرفج، 2001)، ثم أن الإنسان همجي، ولا علاج لرعونته، حتى الإنسان الصغير يتحول في غضون سنوات قليلة إلى وحش، بعد أن تغتال التربية فيه البراءة وتغرس فيه كل ألوان الشر والمكر، كمكر السياسي الذي لا تنكسر شوكته أمام العلماء؛ حيث يقول: "إن العلم ينحني أمام السياسة، ويتحدث عن إحراق العالمين (جيور دانو برونو وكامبانيلا) بدلا من الاستماع إلى استجوابهما، ويشير إلى (غاليليو) الذي تنكر ليقينه العلمي خوفا من المصير نفسه... ولا تقوى حجج كانط في مجابهة ومقارعة آراء الحمار الصائبة، فيقر في الأخير بمنطقيتها مثلما يقر هوجو نفسه في النهاية بصوابها.

عبر حمار هوجو عن إحساس العالم والمثقف بالعزل والغربة بين الناس؛ لأنهم وضعوا لأنفسهم معايير خلقية وروحية تعصم انطلاقهم وحريتهم مما يدنس الروح أو يطمس الوجدان، وهم يحسون بغربتهم ويرون أنهم مغبونون للمكانة التي افتقدوها في واقعهم، ولذلك اعتزلوه، غير أن العزلة في هذه الحالة "قد تكون التزاما صارما بقضية هذا المجتمع، ومن ثم لا تكون عزلة الأديب مظهرا لسلبيته بقدر ما هي تعبير صريح عن موقفه، ورفض جهير معلن لأوضاع لا يرضى عنها، أو يستطيع أن يسايرها" (الرحمن، 1996، 251)، فأناب هوجو الحمار عن المثقف في التعبير عن الرفض للأوضاع الراهنة، والتطلع إلى واقع أفضل، عالم يوتوبي يصبو له ولا يصله أو يحققه، وهو يفوق عوالم الفلاسفة مثالية.

11) الحمار السياسي من جديد (حمار عزيز نيسين):

استخدم الكاتب التركي (عزيز نيسين) الحمير كثيرا كشخصية وسيطة، للإدلاء بآرائه وانتقاداته، وهو أكثر من وظف الحمير، وتنوعت أعماله حوله، وكلها أعمال في الكوميديا السوداء، تحكي عن هذا الحيوان في علاقته ببني جنسه مرة، وعلاقته بالإنسان مرة أخرى، وتنتقد الواقع في قالب فكاهي؛ ففي رواية "الحمار الميت" (نيسين، 2010) الذي لا يخاف الذئب، يحكي عن حمار نافق ظل يبعث رسائل من الدار الآخرة إلى صديقته ذبابة الحمار الميت في الحياة، يسرد فيها

تفاصيل موته ونقله إلى المشفى ودفنه، وما جرى خلال هذه الرحلة من الدار الأولى إلى الدار الآخرة، وما تحتويه من تفاصيل ومفارقات، ومشاهد وحقائق.

حماريات عزيز نيسين كثيرة، وكلها ذات توجه رمزي سياسي، وما أصلح موضوعات الفكاهة للنقد السياسي؛ إذ يرى شاكر عبد الحميد في كتابه (الفكاهة والضحك رؤية جديدة) أن "الفكاهة والضحك يزدهران أثناء الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بينما يرى البعض الآخر أن العكس هو الصحيح"؛ حيث تؤدي الأزمات الشديدة إلى حالة من الاكتئاب الجماعي، لا تفيد معها أي فكاهة ولا أي ضحكات... وفي قصة "آه منا معشر الحمير" (نيسين، 2011)، يروي نيسين قصة الحمار الذي ظل يكابر على نفسه في هجوم الذئب حتى أكله"؛ فيقول في بدايتها بعد أن يسرد بعض الوقائع: "وبسبب الخوف نسبنا للغتنا الحميرية... ولو أن ذلك الحمار لم يخدع نفسه، لكنا نجيد الحديث بلغتنا الآن". (نيسين، 2011)، وفي كلامه هذا استهزاء مميت ونقد لاذع لحقائق مرة المذاق.

أما قصة "وسام الحمار" (نيسين، 2012)، فهي قصة سياسية رمزية، تنقد الطبقة الحاكمة نقدا لاذعا، عن طريق الترميز، فالحاكم وحاشيته هم كالحمير التي تحيا بلا وعي وإدراك، ولكنهم كالأنعام غارقون في الشهوات، حيث يغرفون من خزائن الدولة ومال الشعب، ولطالما استخدم الأدباء الحمير للنيل من السياسيين، وتمرير الرسائل التي يريدونها عبرهم؛ لذا جاءت حمارياتنيسين لتنقد الوضيع من أخلاق البشر كالغباء والأنانية... ودارت مجرياتها إما بين الحمير وبني جنسها، أو بين الحمير والآدميين، اختير بطل تلك الروايات والقصص من فصيلة الحمير، وقد اشتهر الحمار بين الناس بقلة الاحترام والاستساغة، فكانت حمير نيسين شخصيات وسيطة رامزة للألم الإنساني، وواقع المجتمع التركي، وبالتالي انتقاده...فعبرت عن الغربة السياسية التي يعاني منها الكاتب وجميع الشعوب المضطهدة؛ الناتجة عن فساد الذمم واختلال القيم، ومواقف المثقفين من ذلك، بعد أن حاولوا الإصلاح فلم يفلحوا، ثم حاولوا الاعتزال فما تمكنوا، لأن المثقف لا يستطيع إلا أن "ينتمي لحزب الحياة"، (يبندر، 160)، هذا من جهة ولأن "حياة الناس موصولة بحياتهم ووجودهم قائم عليها، مهما حاولوا الهروب منها"، من جهة ثانية.

ثم حاولوا إطلاق أرواحهم من سجن المجتمع المقموع الموحش، الذي تختنق فيه الحريات، وتضيق فيه النفوس تحت ظلم السياسيين وممارساتهم وزيف الواقع، فلم يستطيعوا، فتحول بعض المتنورين إلى التعبير بطرق غير مباشرة، ومنهم صاحب الحماريات هذا، الذي كانت حمارياته نوعا من الرفض لكل تلك الانتهاكات؛ فأدان نيسين السياسيين عن طريق الحمير، بعد أن اصطدم بعبثية المسئولين، فبدأ الكاتب يزاول الرفض...عن طريق التحول إلى الوعظ، النصح والإرشاد للناس، وعن طريق الهجوم التهكمي اللاذع على لسان الحمار بالنسبة للسياسيين، بعد أن اغترب

عنهم؛ نتيجة عدم مقدرته على الاندماج الروحي أو الفكري في مجتمع يسوسه المفسدون، وحين وجد نفسه وسط أناس لا يواكبونه فكريا وروحيا؛ هجرهم واعتزلهم، "والعزلة عند الفتنة سنة الأنبياء وعصمة الأولياء" (الخطابي، 1985، 13) وانزوى إلى صومعته مبتعدا عن فتنة الواقع، يحيك فيها أدبا خاصا لهؤلاء؛ هو أدب الحماريات.

ثانيا: الحمار في الأدب العربي:

1) الحمار البليغ (حمار ابن المقفع):

ورد ذكر حمار ابن المقفع، ضمن كتابه المترجم عن الفهلوية والهندية "كليلة ودمنة"، خلال القرن الثامن الميلادي، ويتضمن هذا الكتاب مجموعة حكايات أبطالها من الحيوانات البرية والداجنة يتفاعلون فيما بينهم وكأنهم من البشر، وتهدف كل حكاية إلى إلقاء موعظة أو استخلاص حكمة معينة، ولذا سميت كل حكاية مثلا، ولطالما كان الأديب هو المصلح المرجو لمعالجة أدواء المجتمع، على حد قول رضا حوحو: "الأديب هو الذي يستطيع أن يصل إلى أعماق النفوس، فيحللها، وإلى أعماق الأشياء فيصورها، وهو الذي يجعل من أدبه لغة روحية يخاطب بها أرواح الغير، ويعبر بها تعبيرا صادقا عن مشاعره وتصوراته دون أن يحسب حسابا لسخط هذا أو رضا ذاك"، (حوحو، 1982)، حيث ظهر الحمار في الكثير من القصص، كقصة (مثل الأسد وابن آوى والحمار)، والتي يظهر فيها الحمار بصفتين: المظلوم والأحمق، أشار من خلاله ابن المقفع إلى المجتمع الإنساني الفاسد منذ الأزل، ينساق أفراده لرغباتهم وشهواتهم، وتسوده النقائص الأخلاقية؛ من خوف وطمع وجبن وغدر وأنانية...وبمرور الوقت "أصبحت هذه الرذائل دستوره الذي يسيره ويسيطر عليه، وتعارضت مع مبادئ الأديان الإصلاحية، ولم يستطع الإنسان أن يفرط في دينه رغبة ورهبة، ولم يستطع كذلك أن يفرط في دنياه خوفا وطمعا، فأوجد لكل رذيلة فتوى، وأوجد لكل نقيصة اسما براقا جذابا تختفي وراءه، وتبدلت بذلك مظاهرها، وثبتت مخابرها، وصبغت النفوس بصبغتها، فأصبحت مألوفة لدى الإنسان، لا يرى فيها حرجا على دينه ولا حطا من كرامته، ولا مسا لخلقه". (حوحو، 1982)؛ فاتسم كليلة ودمنة بطابع الفكاهة بما فيه من أحمرة، وتجلت طرافته في إلباس الإنسان لبوس الحيوان، وإجراء الحكمة والموعظة على لسانه، وتميز بطريقة العرض والتقديم، إلى جانب الطروحات الاجتماعية والسياسية والتوجهات الفكرية المبثوثة في لغة حيوانات الكتاب، وعلى رأسهم الحمار، الذي ساعدته طبيعته كشخصية طريفة في مناقشة الكثير من المشاكل الاجتماعية والوطنية، مثلما ساعده على سلاسة الحوار وطرافته.

2) الحمار المصلح (حمار توفيق الحكيم):

ورد حمار توفيق الحكيم في كتابين: (حمار الحكيم)، والذي يعتبر سيرة ذاتية للكاتب، و(حماري قال لي)"، (الحكيم، 1945) الذي انطوى على فلسفة الكاتب وبعده الإصلاحي، من خلال التطرق لموضوعات الساعة ومشكلات العصر، حيث اشتمل على "حمار مؤنسن يتحدث مع الحكيم ويحاوره حول كل شيء بدءاً بأحداث الساعة وشخصياتها مثل هتلر وموسوليني ومؤتمر الصلح وصولاً إلى جملة قضايا اجتماعية مثل حقوق المرأة وحزب النساء، وقضايا شخصية حول سلوكيات الأفراد كالنفاق، والجريمة، صورة الفرد، الكفاح، الجنة والنار، وما شابه، وكان الحمار المؤنسن ذريعة وأداة يدلي من خلالها الكاتب بآرائه في مسائل الساعة، وينثر عبر أثيره قيمه الإصلاحية.

يقدم لكتابه بتاريخ علاقته بالحمير وتعاطفه معها، والدور الذي لعبته في حياته، ويختتم مقدمة الكتاب بالقول: "إن الحمار الذي أحدثه في هذا الكتاب ليس واحداً بالذات من بين الحمير الأربعة المذكورة في الكتاب، بل هو جميعها، إنه كلها مجتمعة في واحد.. إنه أي حمار رأيته أو لم أره..." (الحكيم، 1945)؛ أي أنه يختصر في هذا الحمار حياة جميع الأحمرة التي تواتر الناس على تعذيبها بمختلف الطرق من بدء الخليقة إلى اليوم، والتي لا تنأى عن عذابات البشر المعذبين في الأرض، من آدم إلى اليوم...فقد جر هذا الحمار الفيلسوف الشؤم لصاحبه، "وأحدث له مشاكل عديدة، من جراء آرائه الصريحة الجريئة"، (حوحو، (د.ط) 1982، صفحة مقدمة الكتاب.) حتى بلغ من جرأته حد الاستهزاء بالبشر والسخط على ضعف عقولهم وغبائهم وبلادتهم، حين لم يفقهوا فلسفته، فكان رد فعله الترويث أمام متفرجي المسرح، يقول الحكيم في ذلك: "جاءتني الأخبار أن الحمار أدى واجبه على أكمل وجه، وقام بدوره في الرواية على نحو يستحق الإعجاب، ولكنه نظر بعد ذلك إلى جمهور المشاهدين نظرة عميقة، ثم فعل فعلة غير لائقة لوثت خشبة المسرح... وقد بلغني أنه ضرب وطرد وأهين، وأغلب ظني أنه أدرك بغريزته أن الجمهور لم يفهم الرواية، فناب عني في إظهار احتقاره له بالطريقة التي رآها مواتية"، (الحكيم، 1945)...يفسر شيباني ذلك بكونه حمارا "يرى الأشياء بمنظاره الخاص، يراها على طبيعتها عارية من مؤثرات الأغراض والعادات والخوف والطمع، لا تؤثر فيه الرغبة ولا الرهبة، فنظرة هذا الحمار إلى الحياة نظرة صائبة، وحكمه لها وعليها حكما صادقا، وتعبيره عنها تعبيرا صحيحا"، (حوحو، 1982)، وقد استقصده الحكيم لنقد أحوال الريف المصري وفقره وقلة الاهتمام بأمور الصحة والنظافة عند أهل الريف، راجيا أن يتغير حال الريف وأناسيه، ويتحسن وضعهم، وينصلح حالهم.

3) الحمار الواعظ (حمار أحمد رضا حوحو):

يظهر حمار أحمد رضا حوحو في كتابه النقدي الساخر (مع حمار الحكيم)، (حوحو، (د.ط 1982، صفحة مقدمة الكتاب)، والذي تأثر فيه بحمار توفيق الحكيم (حمار الحكيم)؛ صدَّرَهُ بإهداء ساخر قائلا: "إلى الذين أعجبوا بحمار الحكيم وشجعوه على المضي في تأدية رسالته، أقدم هذه النبذة من إنتاجه..."،ثم يتطرق من خلال محاوراته مع حمار الحكيم إلى موضوعات حساسة ومعاشة، أبدى من خلاله آراءه في الآداب والفنون، الأدباء والفنانين، نحن والغرب، الأدب العربي، الأحزاب السياسية، السعادة، علم التربية.

نقل حوحو من خلال فلسفة حماره، حياة المجتمع بمختلف قضاياه الهامة في عصره، كما نقلها الحكيم من قبله، واستطاع أن يكشف عيوبها ومساوئها وينتقدها بأسلوب ساخر، وجرأة قوية؛ حيث "يجري الحوار في هذا الكتاب مع "حمار الحكيم" الذي يتخيله زائرا متجولا في الجزائر، ويجعله مفكرا فيلسوفا..." (رمضان، ص24.)، فصبَّ الاهتمام فيه على نقد المظاهر الاجتماعية المختلفة والتقاليد البالية التي تعرقل تطور المجتمع، "فتطور من حيث الأسلوب واللغة، فكان للحوار هيمنة عليه". (الركيبي، ص197-198.)، وسلك مع حماره طريقة الرسم الساخر والكاريكاتير؛ قصد مزج الفكاهة بالطرح الجاد، وقصد المزج بين الجد والهزل، حتى مع الأشخاص الواقعيين الذين قدمهم في ميزانه، "إذ يسوق لكل منهم جملة عامة تلخص سيرته وذوقه وأسلوبه وملامحه، تماما كما يفعل الرسامون حين يضعون تحت رسومهم عبارة تفسر الحركة أو تجمل الموقف أو تشير إلى هدف الصورة"، (سعد الله، 2007، 93)، وكل ذلك بهدف الحفر في طروحات الفكر الإنساني.

كما طغت على حمار حوحو النزعة الساخرة؛ حيث تبدأ السخرية في التشكل ثم النمو من خلال محاوراته مع الحمار، وهي ميزة طبعت جميع آثاره، يمتطيها ليعبر عن موقفه حول مختلف القضايا، وليس غريبا أن يروح عن نفسه وعن قرائه بأسلوبه الساخر، مادام يحيا "في مجتمع كالمجتمع الجزائري؛ تسوده تقاليد معينة في المرأة، رجال الدين، واستخدام وسائل الحضارة، وتحكمه سياسة معينة قائمة على العنف والإرهاب في كل شيء". (الركيبي، ص92)

قدم رضا حوحو حماره مستنبطا من عدة شخصيات انتزعها من صميم المجتمع الجزائري؛ "فيها الشيخ الذي يتاجر بالدين وينافق بعمامته وسبحته، بينما يرتكب الفواحش والآثام، وفيها النائب الذي اشترى أصوات الناخبين، ثم جلس على الكرسي المذهب وعلى صدره نياشين المستعمر، ولا يملك إلا حركة رأسه علامة للتأييد والموافقة على جميع القرارات، حتى ولو كان فيها زيادة القيود والنكبات على شعبه، وفيها الفتاة التي تعاني كبت المجتمع، ثم تقع في حبائل الشباب الذي يسلبها شرفها ويلفظها طريدة لا تفكر إلا في الانتحار"، (الركيبي، ص94.)، وقد استوعب مبكرا كونها

ظواهر تفتت عضد المجتمعات، تعمل السياسة الفاسدة على تمكينها وتثبيتها في المجتمعات الجاهلة اللاهية.

فاستنسخ حمار الحكيم؛ منطقا إياه بنقد مختلف قضايا شعبه المصيرية، وما يتخبط فيه من جهل، ران على عقله فمنعه من التطور؛ "فهو لا يزال شعبا خرافيا في السياسة والاقتصاد، خرافيا في التربية والتعليم والفنون، خرافيا في النظر إلى المرأة والزواج والأسرة، خرافيا في نظره إلى الحياة كمجتمع متمدن يعيش في القرن العشرين"، (حوحو، 1982)، فرأى في الحمار نواة صالحة لغرس بذور التغيير، عن طريق الروح النقدية الساخرة لمختلف القضايا المصيرية التي أجراها على لسان حماره المستنسخ.

4) الحمار الصديق (حمار يحي حقي):

يستضيف يحي حقي بدوره الحمار على مائدته الأدبية ضمن أثره الموسوم بـ: (وجدت سعادتي مع الحمير)، (حقي، 2020)، وفيه يصفها ويصنفها ويتحدث عن متعة ركوبها وعلاقة البشر بها، فالبشر هم الذين يملكون الحمير ويستخدمونها ويرعونها ويعذبونها، فيصف هذا الحيوان المغلوب على أمره، المتهم بالغباء المكلف بأن يحمل البشر والمتاع، ولا يناله من هذا كله سوى الإيذاء الوحشي والنزر اليسير من الطعام والراحة، يقول يحي حقي: "لم أر كالحمار حيوانا تحس أنه أدرك أنه أسقط في يده، أنه لم يقبل قدره عن عمى وغفلة أو تدليس عليه، بل عن بصيرة وفهم بعد أن وازن بين حيلته وقدرة ظالمه، وقاده ذكاؤه العملي إلى الاقتناع بأن كل أمل قد مات، وأن لا فائدة ترتجى من الثورة أو اللجاجة أو العناد، فوضع إرادته وغرامه وبهجته ومرحه وحبه للعب والعبث في خرز مكتوم في قلبه وأحنى رأسه وأذنيه وسبل ظهره واستسلم بلا قيد أو شرط"، (حقي، 2020، ص123)، وهذا دون شك رمز وتلميح إلى الأقوام الراضخين لسياسييهم وبطش حكامهم، دون نقاش أو رفض أو احتجاج أو تذمر، كما بنى من عالم أحمرته مدينة يوتوبية فاضلة؛ "تجعل من العالم المرغوب نقيضا كليا لعوالم الإنسان المثقلة بالهموم والظلم، وبألوان التعسف والاضطهاد التي لا تنقضي" (دراج، 2004)؛ فحلم بذاك العالم مثلما حلم قبله أفلاطون في (الجمهورية) في القرن الرابع قبل الميلاد، بمدينة مثالية يقودها الفلاسفة، وحلم توماس مور (بأفضل الجمهوريات 1516م)، وأعقبه توماس كامبانيلا (بمدينة الشمس 1623م)، ولكنها مدن تسخر فيها اليوتوبيا من نفسها، إذ تعني عند واضعها (توماس مور) "لا مكان"، ولا مكان يردفه "لازمان"، فتظل معلقة في أثير الذاكرة، لا تنقشع ولا تمطر" (دراج، 2004) مثل العوالم التي يهفو إليها حمارنا هذا فلا يجدها ولا يحقق شيئا من أحلامه حولها.يرحل يحي حقي في رحلة خيالية إلى عالم الأحمرة كمدينة يوتوبيةإسقاطية، فتكون مدينة مضمرة، لم يكتشفها أحد، قائمة في مكان آخر، أو في لا مكان، وإذا كانت المدن الفاضلة المذكورة تتميز بمؤسسات تجنبت شرور الإنسانية كلها، وبنسق حياتي

يعارض ما عرفه الرحالة، حيث البشر يقضون أوقاتهم بما يهندس الروح ويصقل الأخلاق، والأطفال منصرفون إلى الفنون الجميلة، والذهب محتقر زهدت به النفوس، تصنع منه أغلال العبيد الذين أرقوا المدينة المسالمة... كل شيء يخترقه النظام وكل العلاقات الشفيفة، يحسدها مواطنون أدمنوا الطاعة العاقلة المنظمة" (دراج، 2004)، فإن عالم يحي حقي الحميري ليس عالما مشتهى، إنما هو وسيلة للنقد والتقويض والتغيير، تعكس أخلاق المجتمع المتناقضة، والسلطة السياسية الفاسدة، وتطمح إلى عالم بشري مأمول كعالم حميري جميل وعادل، لذلك تحققت سعادة الكاتب مع الحمير في عالمهم المتخيل، العالم النبيل الذي استبدله الكاتب بعالم بائس، عالم ظاهر بعالم مضمر، منقطع عن التاريخ البشري، وبنسق قيم مغايرةتنسف النسق القائم.

5) الحمار الحمار (حمار جبران خليل جبران):

ورد حمار جبران في قصته (حمير أنطاكية)"؛ (يوسف، 2015)، والقصة عبارة عن حوار بين الحمار الجد، والحمار الحفيد، حين وجدا أثناء مرورهما فوق جسر مدينة أنطاكية حجرا كتب عليه: (هذا ما بناه الملك الروماني فلان)، حيث وضح الجد للحفيد دور أجداده الحمير في نقل حجارة الجسر، عندها سأله الحفيد مستغربا: لماذا لم يكتبوا: هذا ما بناه حمير أنطاكيا؟!، وحمل سؤاله تعجبا واستنكارا لإهمال ذكر الحمير وجهدهم، لكونهم مسلوبي الإرادة وفاقدي الوعي، يسيرون وفق أهداف يضعها قائدها، وهي مسخرة لتنفيذ ما يراد لها، لا ما تريده هي، وفي ذلك إشارة تسقط واقع الحمير على واقع البشر؛**فكل من يسير في الحياة فاقد الوعي، معصب العينين، مسلوب الإرادة، يمنح صك استغلاله لمن يريد قيادته، ولا شك أن مصيره سيكون كمصير حمير أنطاكيا؛ وظيفتهم فقط: نقل أحجار لبناء صروح لغيرهم!**

كشف حمار جبران عن أبعاد فكرية عديدة، وآراء فلسفية عميقة؛ حيث عبر في الأول عن موقف الحمار الغبي الذي ظن أن مجرد مشاركة أجداده الحمير في بناء صرح الملك الروماني يستوجب تكريمهم وكتابة اسمهم بجوار أسماء العظماء.. وحمل سؤاله تعجبا واستنكارا لإهمال ذكر الحمير برغم ما بذلوه من مجهود وما تكبدوه من عناء، برغم دورهم المحوري في بناء صرح الملك! وعبر ثانيا عن فكرة سلب الإرادة للأحمرة، وفقدان الوعي فيما تفعله، إذ تسير وفق ما يراد منها وما تؤمر به من صاحبها بلا مناقشة، فتحقق ما يريده لا ما تريده هي، وبالتالي طرح مشكلة الوعي والإرادة، قبل العدة والعتاد، فبماذا يفيد العتاد والعدة دون عقل يفكر ويدبر، ويضع الأشياء مواضعها وينزلها مواطنها؟

وكلا الطرحين يحيلان إلى مسألة استعباد الشعوب من طرف الطغاة عن طريق التجهيل، ومثال ذلك الحمار الجاهل الذي ينقل الأثقال ويسير بالأحمال حسب ما يؤمر دون وعي أو تفكير، والإلهاء عن طريق صرف النظر إلى أشياء لا معنى لها تخديرا له وصرفا عن الهدف الأسمى،

كالثور الذي "يتم تجهيله بإغماض عينيه وتركه يدور في الساقية بحركة دائرية عبثية بُغية رفع الماء لمُسَّخِره، ويتم إلهاؤه بالمنديل الأحمر في حلبة مُصارعة الثيران، وبينما هو يَتَلَهَّى بمتابعة الهدف الوهمي، تنغرس السهام في رقبته، حتى يَخِرَّ صريعا وسط صيحات الانتصار من صاحبه والجمهور،" (يوسف، الحمار في الحياة والسياسة والأدب، 2018)، ومثله حمارنا الذي يتلهى بمجرد النقل، دون أن يكون له وزن أو رأي أو يد في بناء صرح الحضارة، ومثلهما أحمرتنا البشرية المسيرة بسياسة التجهيل واللهو.

الخاتمة:

هكذا نخلص إلى أن الحمار شخصية سيطرت على الأدب في مختلف عصوره، وكان رفيقا للأدباء والفلاسفة، يحاورونه، وينطقونه بالحكمة والفلسفة، رافق وجود الإنسان على هذه الأرض، فكان الصاحب، والرفيق، الخدوم الصبور، ثم حمله الإنسان –بالإضافة إلى متاعه وأثقاله– أفكاره وآراءه وفنه وفلسفته، حتى ينقلها إلى من أراد رسائل مشفرة آمنة السريَّة، وتلك الأمانة الفكرية خلدته، فوصلت إلينا الحماريات في كتب اللأدب والفلسفة والشعر والحكمة، من مختلف الأجناس والألوان والألسنة.

توصل البحث إلى مجموعة من النتائج أبرزها:

- طغى حضور الحمار في الساحة الأدبية والفلسفية على السواء؛ ففي الفلسفة الرواقية مثلا، نجد فيلسوفها الشهير "كليانتس" لُقب بالحمار نتيجة أفكاره الأخلاقية العظيمة، وطيبته وإخلاصه وتسامحه، وترفعه عن نزواته وغرائزه وشهواته الجسدية، وشدة إيمانه، وكان لا يغضب من لقبه مرددا أنا ذلك الحمار الأجدر والأقدر على حمل تعاليم زينون الفلسفية، وقد أثَّرتْ كتاباته وقصائده الروحية في الفكر الأخلاقي والترانيم المسيحية.
- كان مصدر المعرفة والنظريات الفلسفية؛ فأثبت به الفيلسوف الفرنسي جان بوريدان (1300-1358م) نظريته المشهورة حول الاختيار والإرادة بتجربة الماء والكلأ، ورغم ما يُتَّهَمُ به الحمار من غباء وبلاهة وبلادة.
- استخدمه الفلاسفة والأدباء لتأدية أدوار حاسمة في الفكر والحياة؛ الدور الأول الإضحاك، والفكاهة، والثاني، تقويض المفاسد، ونشر الفضائل والقيم، والتبشير بمجتمعات فاضلة.
- وظفه الأدباء والفلاسفة نظيرا للسياسي ببلادته وشراهته أو بتعصبه واستبداده، وصاغوه نظيرا للشعوب الذليلة المستضعفة التي تسير إلى الكلأ كما تسير الأحمرة بلا فكر أو إعمال عقل، فتقمص الشخصية، ولبس الدور، فأجاد وأفاد، وهو لا شك دور يعجز غيره من الحيوانات عن أدائه.

- وظفه الأدباء العرب في إبداعاتهم المختلفة للتعبير عن مشاعر متباينة وآراء مختلفة، فكتان فيلسوفا، حكيما، مثقفا ومفكرا ناطقا بألسنتهم، وراسما طريق الحق والخير التي يصبون إلى هداية الناس إليها.

أوصى البحث بمجموعة من التوصيات أبرزها:

- وجوب الخوض في هذا الموضوع؛ الذي يظل من الموضوعات المسكوت عنها في الساحة الأدبية، وقد يكون ذلك بسبب الأفكار المبطنة خلف رأسه البليد، أو للفلسفة والفكر اللذين يغطيهما بأذنيه الطويلتين، أو للرموز السياسية الخطيرة التي يخفيها خلف أظلافه.
- الاطلاع على ما كتب في هذا المجال لما فيه من فائدة فكرية، ومتعة أدبية وفنية.
- الاستفادة من القصص والروايات التي ألفت في أدب الحمار، لا سيما ما كتبه التركي (عزيز نيسين)، ففيه وقائع وحقائق مريعة، لن توجد إلا في هذا النوع من الأدب.

قائمة المصادر والمراجع:

- أبو القاسم سعد الله. (2007). دراسات في الأدب الجزائري الحديث. ط5، الجزائر: دار الرائد للكتاب.
- أبو القاسم سعد الله. (2007). دراسات في الأدب الجزائري الحديث. ط5، الجزائر: دار الرائد للكتاب.
- أبو سليمان الخطابي. (1985). العزلة، تحقيق عبد الغفار البنداري. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- أحمد رضا حوحو. (1982). مع حمار الحكيم. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- أحمد عبد الرحمن العرفج. (21 نوفمبر 2001). الحمار أعظم من أفلاطون. تاريخ الاسترداد 23 01 2020، من صحيفة إيلاف اللندنية: https;//ILEF.COM
- إريك آرثر بلير (جورج أورويل). (بدون سنة نشر). مزرعة الحيوان، ترجمة عبد الرزاق بلهاشمي. ط3، الكويت: دار كلمات للنشر والتوزيع.
- إسلام الحديدي. (7 ,6 207). عندما يتحدث الذباب. تاريخ الاسترداد 30 ,01 2020، من العرب نيوز: www.alarabnews.com
- الفرفار العياشي. (11 يوليو 2019). الحمير والسياسة. تاريخ الاسترداد 31 ,01 2020، من صحيفة الحوار المتمدن الإلكترونية: https;//elhiwar elmoutamaddin.net/
- الكونتيسة دي سيجور. (1932). خواطر حمار، ترجمة حسين الجمل، بعناية بسام عبد الوهاب الجابي. ط2، بيروت: دار ابن حزم للنشر والتوزيع.

- بيدبا (الفيلسوف الهندي). ((د.ط)، (د.ت)). كليلة ودمنة، نقله من الفهلوية إلى العربية عبد الله بن المقفع. بيروت، لبنان.: دار الجيل للنشر والتوزيع.
- توفيق الحكيم. (1945). حماري قال لي. القاهرة، مصر.: دار ومكتبة مصر للطباعة، سعيد جودت السحار وشركاه، الفجالة.
- جونسون روبرت فنسنت. (1987). موسوعة المصطلح النقدي، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة. بغداد، العراق: منشورات وزارة الثقافة والفنون.
- حمار ود الطاهر. (26 03, 2018). تاريخ الاسترداد 25 12, 2020، من منتديات البركل: http://albrkal.com/vb/showthread.php
- خوان رامون خمينث. (20 09, 1916). أنا وحماري، ترجمة لطفي عبد البديع، موقع رفي لمتعة القراءة، ط03، 1956. تاريخ الاسترداد 5 10, 2020، من http://raffy.me/books/view_book/
- ستيفن يبندر. ((د.ط)، (د.ت)). الحياة والشاعر، ترجمة د. محمد مصطفى بدوي. مصر: مكتبة الأنجلو المصرية.
- شاكر عبد الحميد. (1423 هـ/2003م). الفكاهة والضحك (رؤية جديدة). الكويت: عالم المعرفة، مطابع السياسة.
- شاكر عبد الحميد. (1423هـ/2003م). الفكاهة والضحك رؤية جديدة. (صفحة 07 (المدخل)). الكويت: عالمالمعرفة، مطابع السياسة.
- عائشة عبد الرحمن. (1996). قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر. القاهرة، مصر: معهد البحوث والدراسات العربية.
- عبد الله الركيبي. ((د.ط=، (د.ت).). تطور النثر الجزائري الحديث (1830-1947)، الأعمال الكاملة،. القاهرة، مصر.: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
- عزيز نيسين. (05 15, 2010). الحمار الميت، ترجمة عبد القادر عبدلي. تاريخ الاسترداد 20 01, 2020، من نور بوك: https://www.noor-book.com/،
- عزيز نيسين. (16 03, 2011). آه منا نحن معشر الحمير، ترجمة جمال درويش. تاريخ الاسترداد 25 12, 2020، من كتاب ب.د.ف.: https://www.kutub-pdf.net/book/.html
- عزيز نيسين. (6 11, 2012). وسام للحمار. تاريخ الاسترداد 20 01, 2020، من مكتبة دار الهلال: https://www.kutub-pdf.net/book/.html
- عصمت نصار. (23 02, 2012). وصية حمار بين العلم والفلسفة. تاريخ الاسترداد 13 08, 2020، من روزاليوسف: https://www.rosaelyoussef.com/article/22986

- علي خليفة. (22 08, 2018). المسرح العالمي، مسرحية محاكمة حول ظل الحمار. تاريخ الاسترداد 4 08, 2020
- عمر بوقرورة. (1962). الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث. باتنة، الجزائر: منشورات جامعة باتنة.
- فريدريش دورينمات. (2004). قضية ظل الحمار (روائع المسرح العالمي). ترجمة وتقديم د. محمد يسري خميس، مراجعة أ.د. باهي محمد الجوهري. القاهرة، مصر: وزارة الثقافة، المركز القومي للمسرح والفنون الشعبية.
- فريق علم النفس والمجتمع. (11 4, 2016). بعيدا عن كرافة الإلحاد. تاريخ الاسترداد 16 01, 2020، من مسلمز رس كوم: https://muslims.res.com
- فيصل دراج. (2004). الرواية وتأويل التاريخ. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- قثم القيسي. (26 07, 2012). فلسفة الحمير. تاريخ الاسترداد 02 10, 2020، من جريدة التآخي: https://altaakhi.net/
- لوكيوس أبوليوس. ((د.ت)). الحمار الذهبي، ترجمة أبو العيد دودو. الجزائر: الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف. (د.ط).
- لوكيوس أبوليوس. ((د.ت)). الحمار الذهبي، ترجمة أبو العيد دودو،. الجزائر: الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف.
- محمد الصالح رمضان. (بدون سنة نشر). الموسوعة التاريخية للشباب، شهيد الكلمة رضا حوحو، إشراف حسين بوروبة. مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث.: الجزائر.
- محمد صابر عبيد وسوسن البياتي. (2012). جماليات التشكيل الروائي. إربد، عمان، الأردن: عالم الكتب الحديث.
- محمد عبد الكريم يوسف. (15 12, 2015). الحمار في الحياة والسياسة والأدب. تاريخ الاسترداد 28 01, 2020، من موقع الصدى نت: https;//elsada.net//
- محمد عبد الكريم يوسف. (17 05, 2018). الحمار في الحياة والسياسة والأدب. تاريخ الاسترداد 28 01, 2020، من موقع الصدى نت: https://elsada.net//
- وليام شكسبير. ((د.ت)). حلم ليلة في منتصف الصيف. القاهرة، مصر: المكتبة الكلاسيكية، دار الشروق للنشر والتوزيع.
- يحي حقي. (25 نوفمبر 2020). وجدت سعادتي مع الحمير، إعداد وتقديم عبد التواب يوسف.